درس المكسيك بشأن الرأسمالية

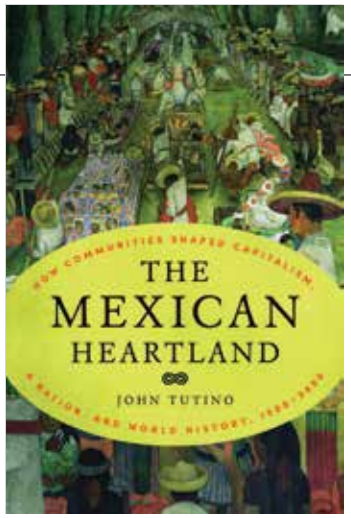

جون توتينو
الأراضي المكسيكية الأصلية — كيف شكلت المجتمعات المحلية الرأسمالية، أمة وتاريخ العالم، ١٥٠٠–٢٠٠٠

John Tutino
The Mexican Heartland—How Communities Shaped Capitalism, a Nation, and World History, 1500–2000
Princeton University Press,
Princeton, NJ, 2017, 512 pp., $39.50

في عمل أكاديمي **رائع** يروي جون توتينو المؤرخ بجامعة جورج تاون رحلة المكسيك الطويلة إلى الحداثة من وجهة نظر المجتمعات الصغيرة المحيطة بمكسيكو سيتي. وتمتد هذه العملية الطموحة عبر خمسة قرون لتحليل كيف تمكنت هذه المجتمعات من «بناء الرأسمالية والحفاظ عليها ودعمها ومقاومتها وتغييرها» في مراحلها المختلفة من الرأسمالية الإمبريالية القائمة على الفضة تحت الحكم الإسباني إلى التحول من الرأسمالية الوطنية إلى العالمية الليبرالية في أواخر القرن العشرين.

ويقدم توتينو وصفا وافيا للصدام بين الحياة المجتمعية التقليدية وتوسع الرأسمالية عبر القرون ويحكي قصص ناس في مجتمعات محلية مثل شالكو وتينانغو ديل فالي وتيبوزتلان، وهي أماكن تجسد الصفات الدائمة للأراضي المكسيكية الأصلية: الفقر، والمجتمعات المنتجة، والحكم الذاتي المحلي، والنظام الأبوي.

ومن الموضوعات الرئيسية للكتاب هي الصلابة التي أتاحت للمجتمعات المحلية الاحتفاظ، بمستويات متفاوتة من النجاح، بدرجة من الاستقلال الإيكولوجي والسياسي والثقافي الذي تم تأمينه خلال عصر الاقتصاد العالمي القائم على الفضة تحت الحكم الإسباني. وفي أواخر القرن التاسع عشر، أتت الرأسمالية الليبرالية بتركيز في ملكية الأراضي أدى، بجانب النمو السكاني والميكنة، إلى تقويض النظام الأسري الأبوي. ويصف توتينو كيف أدى ذلك إلى زيادة العنف، داخل الأسر ومن جانب التمرد المسلح.

الانفتاح الاقتصادي والإدماج الاجتماعي لا يحدثان، بالطبع، تلقائيا.

وكانت النتيجة النهائية هي إصلاح الأراضي الذي أدى إلى تجدد مؤقت للاستقلالية. ولكن أدى النمو السكاني الكبير في القرن العشرين والتوسع السريع لمكسيكو سيتي إلى ضعف المجتمعات الريفية وترك معظم سكان المناطق الريفية يعانون من أجل بناء حياة مرضية في المجتمعات الحضرية المترامية الأطراف.

وبالنسبة إلى توتينو، كانت هذه المرحلة والانهيار اللاحق للرأسمالية الوطنية و«انتصار العولمة» منذ ثمانينات القرن الماضي إشارة إلى النهاية الحاسمة للحكم الذاتي المحلي. ومع ذلك، قد يكون المؤلف قد أشار إلى النهاية في وقت مبكر جدا. فقد كان الصدام بين المجتمعات المحلية والرأسمالية الليبرالية لا يزال واضحا في عام ٢٠٠٦ عندما أجبرت أعمال الشغب التي قادها مجتمع سان سلفادور أنتكو على تأجيل مشروع مطار مكسيكو سيتي الجديد لمدة ١٠ سنوات.

ويبدو أن المؤلف يشير أيضا إلى عدم التوافق بين الرأسمالية ونظام المجتمعات المستقلة التقليدية يعني الاختيار بين التدهور الاجتماعي والإدماج الاجتماعي. ومع ذلك، فإن بعضا من أكثر الاقتصادات انفتاحا وتوجها إلى السوق لديها أفضل سجل أيضا فيما يتعلق بالشمولية والبيئة.

وفي حين أن توتينو قد يكون على حق في أنه لا يزال يتعين الانتظار لمعرفة «كيف سيُشكل الناس المجتمعات ويدفعون احتياجاتهم في عالمنا الجديد»، فهناك أسباب كثيرة تدعو إلى التفاؤل بهذا الشأن بقدر ما تدعو إلى التشاؤم. والانفتاح الاقتصادي والإدماج الاجتماعي لا يحدثان، بالطبع، تلقائيا. فهناك حاجة إلى السياسات السليمة لتحقيق النمو الشامل للجميع والقابل للاستمرار الذي يمكن أن يتصدى للفقر ويؤمن البيئة ويدعم حقوق الإنسان والديمقراطية في نفس الوقت. وفي اجتماع لمنظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي عقد في عام ٢٠١٧ وتوليت رئاسته، أُنشئت شبكة الاقتصادات المفتوحة والمجتمعات الشاملة للجميع للدعوة إلى تحقيق هذا المزيج من الأهداف. وتعمل منظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي بشكل وثيق مع السلطات المكسيكية لتصميم وتنفيذ إصلاحات تدعم الإنتاجية وتحسن في الوقت ذاته النمو الشامل للجميع. وآمل وأعتقد أن الأفضل لم يأت بعد للأراضي المكسيكية الأصلية. FD

خوسيه أنجل غوريا، الأمين العام، منظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي.